الباب الأول

شخصية المرأة في القرآن والسنّة

الفصل الأول :

حديث القرآن الكريم عن شخصية المرأة .

الفصل الثاني :

المنهج النبوي في الحديث عن شخصية المرأة .

تمهيد

إذا أردنا الوقوف عن كثب عند مسألة المكانة التي أعطاها الإسلام للمرأة ، فلا بدّ من العود قليلاً إلى التاريخ لنرى كيف أعطت الأديان الأخرى للمرأة مكانتها .

ففي اليهودية :

الزوجة خاضعة للزوج ، والأب يزوجها لمن يشاء دون مشورتها ولا رضاها ، لذلك انتشر اللواط بين اليهود ، وكذلك انتشر الزنى ، فكثرت العاهرات ، وأصبح اتصال الرجال بينهن أمراً مشروعاً!! ووصل الأمر إلى أن المرأة اليهودية أصبحت كالمتاع يملكه الرجل وله الحق الكامل في أن يتصرّف فيه كيفما يشاء!!

وفي المسيحية :

انتشرت العلاقات الجنسية غير المشروعة بينهم ، وساد اعتقاد أن التقوىٰ والتورع آخر يوم في الأسبوع يكفي لغسل ذنوب جميع أيام الأسبوع!!

وانتشرت الرذيلة حتى في طريق الذهاب إلى الحج ، بل وحتى في الكنائس ، وبرروا ذلك بأشياء لا يقبلها العقل ولا الشرع ، قال القديس أوغسطين : إذا منعت العاهرات والمواخير اضطربت الدنيا من شدة الشبق!!

وكان القساوسة ينظرون إلى المرأة على أنها : شرّ لا بد منه ، وإغواء طبيعي ، وكارثة مرغوب فيها ، وخطر منزلي ، وفتنة مهلكة و . . !!

يقول القديس (توماس أكونياس) : (إن المرأة خاضعة للرجل لضعف طبيعتها الجسمية والعقلية معاً ، والرجل مبدأ المرأة ومنتهاها كما أن الله مبدأ كل شيء ومنتهاه ، وقد فرض الخضوع على المرأة عملاً بقانون الطبيعة ، أما العبد فليس كذلك ، ويجب على الأبناء أن يحبوا آباءهم أكثر مما يحبون أمهاتهم) .

وقد أقرّ القانون المدني قضايا فيها العجب العجاب ، من ذلك مثلاً :

١ـ يجوز للرجل ضرب وعقاب زوجته وحتى بدون سبب لذلك!

٢ـ لا يجوز للمرأة أن تحضر إلى المحكمة ولا أن تقول فيها كلمة ، ولا أن تسمع إطلاقاً أو يؤخذ بما قالتِ لأي سبب .

٣ـ يعطي الزواج للزوج كامل الحق في الإنتفاع بكل ما لزوجته من متاع أو مال أو غيره في وقت الزواج ، وله أن يتصرف في ريعها كما يحلو له ، رضيت بذلك أو لم ترضَ!

٤ـ يحتم على المرأة أن تقوم وحدها بكافة الأعمال المنزلية على وجه الإلزام ، حتى إن تقصيرها في ذلك كان يعدّ من مبررات الطلاق أحياناً!!

أما في الحضارات الحديثة :

فقُبيل سنوات كان هناك ما يسمىٰ الحضارة الشرقية متمثلة بالمعسكر الاشتراكي والذي كان يتزعمه الاتحاد السوفياتي .

والشيوعية ـ كما هو معلوم ـ لا تعتقد بوجود أديان بحيث أطلقت شعارات تقول : إن هي إلا أرحامٌ تدفع ، وأرض تبلع ، ولا ربّ في

السماء ، ولا نبي في الأرض ، وأن الأديان أفيون الشعوب!! لذلك أغلقت المساجد وحوّلت بعضها إلى مستودعات للفودكا!!

كذلك فقد ركزت الشيوعية علىٰ إلغاء الأسرة ، ونادت النساء بحق الإجهاض ، واعتبرت الزنى حقاً للمرأة تعبر به عن شهوتها الجنسية!!

وأصرّ أقطاب الشيوعية على خروج المرأة إلى العمل وإلا فلا عيش ولا أكل لمن لا يعمل! لذلك أجبرت المرأة على العمل في المصانع والمناجم والأعمال الشاقة لتختفي أنوثتها شيئاً فشيئاً لتتمزّق الأُسر ، ولتُرفع القيود عن العلاقة بين الرجل والمرأة. . .

إذاً : باسم المساواة بين الرجل والمرأة ، حُرمت المرأة من كثير من الحقوق ، كحقها في أن تكون زوجة ، وأن تكون أماً ، وحمِّلت ما لا تطيق في العمل والركض وراء لقمة العيش ، فهل وصلت المرأة الشيوعية إلى جنة الفردوس التي حلم بها (ماركس) في أن تكون على سطح الكرة الأرضية حين تطبيق الشيوعية ؟!

وأما في الحضارة الغربية ، والتي قامت أساساً على نفي الغيبيات والاعتقاد فقط بالملموسات وعلى المناداة بحرية الفكر وتقديس العلم ، لذلك ظهر الإلحاد ونظريات العودة إلى الدهرية ، والتي تعني نسبة كل الأحداث إلى الدهر!

وظهر من فلاسفتهم : فولتير ، وروسو ، وسبنسر ، وداروِن. . وتمحور المفهوم العصري لأصحاب هذه الحضارات على نفي وجود الله سبحانه ، واللجوء إلى عبادة المال والشهرة والشهوة الجسدية ، لذلك انتشرت الإباحية ، والتي تعني : أن يبيح الرجل أو المرأة لنفسه أن يفعل ما يريد ما دام ذلك يحقق له إشباع حاجاته وشهواته!!

وكان من جرّاء ذلك كله انتشار الخمر والمخدرات ، وانتشار العري

واللواطة والشذوذ الجنسي والزنى والفسق والفجور ، وما يُنقل اليوم عبر شاشات الصحون المقعرة (الستلايت) و (الأنترنيت) والأقمار الصناعية ـ مما يجعل ناصية الأطفال تشيب ـ عنا ببعيد!!!

أما مكانة المرأة في ظل الحضارات القديمة ، كحضارة مصر القديمة ، وفي حضارة بابل وآشور ، وفي الهند وبلاد فارس ، وفي الصين واليابان ، وفي اليونان ، وعند الرومان ، فلم تكن أحسن حالاً من حالها عند اليهود والنصارىٰ! حيث انتشار الراقصات العاريات ، وانتشار الدعارة المقدسة ، وبيع النساء كما تُباع السلع ، وعدم أخذ رأيها بما يتعلق بزواجها ، وتحريم تعليمها ، والتمييز بين الذكور والإناث..!!

أي في كل الفترات كان الرجل هو المتحكم بكل أمور المرأة ، وهي لا حقّ لها إطلاقاً ، لأنها إنما خُلقت من أجل إشباع شهوة الرجل وما إلىٰ هنالك!!

ولا فرق بين المرأة وأي متاع يملكه الرجل ، فكما له الحق في أن يضرب المتاع ويكسره ويرميه في القمامة أو الحقل الزراعي ، كذلك له الحق في ممارسة ذلك مع المرأة!!

كذلك فقد انتشرت الخرافات في هذا المجال ، والذي زاد الطين بلّة آراء الفلاسفة ورجال الدين ، والذين كان لهم الدور الكبير في إهانة المرأة وإذلالها وباسم الدين!![1] .

* * *

---

(١) لقد فصّلت القول في ذلك . في كتابي : النساء شقائق الرجال ، الباب الأول ؛ وللتوسع يراجع : قصة الحضارة ، ول ديورانت : ٢/ ٣٧ـ٩٦ ، ترجمة زكي نجيب محمود .

الفصل الأول

حديث القرآن عن شخصية المرأة

في القرآن الكريم حديث مستفيض عن تحديد شخصية المرأة ، ويمكن ضبط ذلك بما يلي :

أ ـ المرأة دائماً بجوار الرجل :

وذلك لأن الأصل واحد ، قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾

[النساء : ١] .

وفي حديثه عن خروج آدم وحواء من الجنة ، يؤكد القرآن على أنها متساويان ، وأن شخصيتها إلى جوار شخصيته ، قال الله تعالى :

﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه : ١١٧ـ١٢٣] .

إن الحكاية هنا توضح مسألة الشخصية المستقلة للمرأة إلى جوار شخصية الرجل ، ونلمح ذلك في قوله تعالى : ﴿لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ و ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا﴾ و ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا﴾ و ﴿ فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ و ﴿ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ .

ورحم الله العلامة القرطبي عندما قال ـ وهو يعلّق على هذه القصة ـ :

﴿فتشقى﴾ يعني أنت وزوجك لأنهما في استواء العلة واحد ، ولم يقل : فتشقيا ، لأن المعنى معروف ، وآدم عليه السلام هو المخاطب ، وهو المقصود .

وأيضاً لما كان الكادّ عليها والكاسب لها كان بالشقاء أخص ، وقيل : الإخراج واقع عليهما والشقاوة على آدم وحده ، وهو شقاوة البدن ، ألا ترى أنه عقبه بقوله : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ أي في الجنة ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ فأعلمه أن له في الجنة هذا كله : الكسوة والطعام والشراب والمسكن ، وأنك إن ضيّعت الوصية ، وأطعت العدوّ أخرجكما من الجنة فشقيت تعباً ونصباً ، أي جُعتَ وعريتَ وظمئتَ وأصابتك الشمس ، لأنك ترد إلى الأرض إذا أخرجت من الجنّة ، وإنما خصّه بذكر الشقاء ولم يقل فتشقيان : يعلمنا أن نفقة الزوجة على الزوج ، فمن يومئذٍ جرت نفقة النساء على الأزواج ، فلما كانت نفقة حواء على آدم كذلك نفقات بناتها على بني آدم بحق الزوجية ، وأعلمنا في هذه الآية أن النفقة التي تجب للمرأة على زوجها هذه الأربعة : الطعام والشراب والكسوة والمسكن ، فإذا أعطاها هذه الأربعة فقد خرج إليها من نفقتها ، فإن تفضل بعد ذلك فهو مأجور ، فأما هذه الأربعة فلا بدّ لها منها ، لأن بها إقامة المهجة .

قال الحسن : المراد بقوله : ﴿فتشقىٰ﴾ شقاء الدنيا ، لا يُرىٰ ابنُ آدم إلا ناصباً ، وقال الفراء : هو أن يأكل من كد يديه[1] .

ويؤكد القرآن مبدأ استقلال شخصية المرأة من خلال الحديث عن بعض الآداب ، ليبين أن المرأة في هذا المجال تتحمل المسؤولية كما يتحملها الرجل تماماً . قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات : ١١] .

وفي مجال الحديث عن الجزاء من الله تعالى ، يؤكد القرآن الكريم على مسألة استقلالية المرأة كما الرجل مستقل في ذلك ، قال الله تعالى :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ٧٢] .

وفي مسألة الإنفاق والصدقة في سبيل الله تعالى ، فالجزاء واحد للرجل والمرأة ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴾ [الحديد : ١٨] .

والجنة ليست حكراً على الرجال! إنما هي للذين يؤمنون بالله

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٦/ ١٦٤-١٦٥ ، وللتوسع يراجع : تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير : ٤/ ٥٤٤ ، التفسير الكبير للرازي : ٢٢/ ١٢٠ ، أحكام القرآن لابن العربي ، ٣/ ٢٥٧ ، فتح القدير للشوكاني : ٣/ ٤٥٩ .

ويسيرون على المنهج ويعملون الصالحات ، سواء كانوا رجالاً أو نساءً ، قال تعالى :

﴿ لِيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح : ٥] .

والذين يسيرون في خط الاستقامة يبشرون ـ رجالاً ونساءً ـ بما أعدّه الله لهم من النعيم والجنان والفوز . قال تعالى :

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [الحديد : ١٢] .

وكيفما كان الحال في مسألة الأعمال الصالحة ، فلا فرق بين جزاء الرجال والنساء ، وضرب الله تعالى نماذج ، من ذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّآئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ۙ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٣٥] .

إذاً :

المسؤولية أمام الله واحدة ، المرأة تتحمل مسؤوليتها وهي ستُسأل عنها ، وكذلك الرجل ، قال تعالىٰ بعد ذكره لطائفة من أدعية الصالحين :

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ [آل عمران : ١٩٥] .

والله تعالىٰ وهو العدل المطلق لا يسمح أن يُظلم أحد أبداً ، حتى قدر النواة لذلك فإنه سيُحاسب الذكر والأنثى بدقة متناهية ، قال الله تعالىٰ :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء : ١٢٤] .

وأكد ذلك مرة أخرى ، قال تعالىٰ :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] .

وفي الحديث عن مصير أولئك المنافقين والعصاة ، يؤكد على مسألة المساواة في الجزاء بين الطرفين ، قال تعالىٰ :

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة : ٦٧ـ٦٨] .

ويؤكد ذلك مرة أخرىٰ ، قال الله تعالىٰ :

﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [الفتح : ٦] .

وعندما يحدث الندم علىٰ ما فرّط الناس من حقوق وواجبات أمام الله تعالىٰ ، عندئذٍ يشمل ذلك النساء والرجال ، قال الله تعالىٰ :

﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ [الحديد : ١٣] .

والحساب والجزاء عند الله لا يختلف أبداً ، فالإنسان ـ سواء كان رجلاً أو امرأة ـ إن كان مؤمناً فإن جزاءه الجنة ، وإلا ـ فالمرأة والرجل ـ فالنتيجة الحتمية لعمل السوء جزاء سيِّىء ، قال تعالىٰ :

﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

[غافر : ٤٠] .

. . وهكذا في مجال التسليم لأمر الله وأمر رسوله ﷺ ، فالمسألة لا تتحمل التفريق بين الرجال والنساء ، فعلى الرجال والنساء التسليم المطلق لله تعالىٰ .

قال عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

وفي مجال التوحيد لله والاستغفار له ، فلا تمييز بين رجال ونساء ، إنما المطلوب أن يستغفر الإنسان للمؤمن ـ سواءً كان رجلاً أو امرأة ـ قال تعالىٰ :

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ [محمد : ١٩] .

والإسلام العظيم يركز على مسألة أن يكون الدعاء للمجموع ، وفي هذا من التكافل وتحمل المسؤولية الجماعية مالا نجده عند الآخرين ، لذلك لا يقول المؤمن في صلاته : (إياك أعبد وإياك أستعين) ، إنما يقول بلسان حال الجماعة كلها :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] .

وهكذا يكون الدعاء في كل الأوقات ، لا يدعو المؤمن لنفسه ، إنما

يدعو لكل المؤمنين ـ سواء كانوا رجالاً ونساءً ـ قال تعالى على لسان نبيه نوح عليه السلام : ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح : ٢٨] .

إذاً : المرأة حسب المفهوم القرآني هي التي تختار طريق الإيمان لتنال رضا الله والفوز بالجنة ، وهي التي تختار طريق الكفر لتنال سخط الله وعقابه ، وقد أكد القرآن الكريم على هذه الحقيقة الناصعة ، من خلال ضرب الأمثلة ، ومن ذلك قصة أبي لهب وزوجه أم جميل :

فأبو لهب ـ الرجل ـ هلكت يداه وخسرت بسبب ما فعل من أذى النبي وازدرائه وبغضه والاستهزاء به ، ثم توعّده الله بأنه سيذيقه حرّ نار جهنّم .

ومثله زوجه أم جميل (أروىٰ بنت حرب ، أخت أبي سفيان) أيضاً ستصلىٰ ناراً ذات لهب ، لما كانت تحمل من أشواك لتطرحها أمام رسول الله ﷺ ، وكانت تطيل لسانها عليه ، بالشتم والإفساد والنميمة ، وقال تعالى :

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾

[المسد : ١ـ٥] .

وفي قصة امرأة نوح وامرأة لوط ـ عليهما السلام ـ عبرة لمن كان فيه العقل والتفكير ليعتبر ، ذلك أنهما كانتا في عصمة رسولين ، وتعيشان معهما في بيت ، وتخالطانهما وتعاشرانهما ، ومع ذلك خانتا الله ورسوله ، فلم تؤمنا بهما .

بل قال المفسرون : إن امرأة نوح كانت تقول للناس عن زوجها : لا تصدّقوه فإنه مجنون!

وكانت امرأة لوط عليه السلام تقوم بمهمة التجسس عليه لصالح قومه الكفرة!!

فهل نفعهما مسألة قرابتهما من نوح ولوط عليهما السلام ؟!

أبداً ، فالقرآن توعدهما بالعذاب الشديد ، ودخول النار مع الداخلين من أهل الكفر والمعاصي ، فالذي ينفع هو العمل وحده ، وهذا دليل واضح على استقلالية شخصية المرأة .

وفي المقابل مثل آخر يؤدي إلى عكس المثل السابق :

(آسية بنت مزاحم) امرأة فرعون ، لم تنخدع بجبروته وسحره ، ولم تخف سلطانه وبطشه ، إنما استقلت برأيها ، وأعلنت إيمانها مع نبي الله موسىٰ عليه السلام ، فما كان من فرعون إلى أن سلّط عليها أشدّ أنواع العذاب ، فثبتت ثبات الجبال الرواسي ، ولم تتراجع عن العقيدة ، فكان الجزاء لها بيتاً في الجنة . . . .

وهكذا (مريم بنت عمران) التي عاشت بين قوم عصاة ، لكنها تحمّلت مسؤوليتها ، وانطلقت تناجي ربها ، وصدّقت بكتب ربها وكلماته ، فجمع الله لها بين كرامة الدنيا والآخرة ، وثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري عن النبيِّ ﷺ قال : « كمُلَ من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام »[1] .

وفي هذا دليل واضح على استقلالية شخصية المرأة ، بحيث لا يضرّ المرأة كفر قومها إن كانت هي مؤمنة بالله ، ولا ينفعها إيمان قومها ، بل

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٢٦١) والبخاري (٣٧٧٠) ومسلم (٢٤٤٦) .

حتى رسالة الله إلى زوجها إن كانت هي كافرة بالله ، قال تعالى :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ [التحريم : ١٠-١٢] .

ب ـ مشاركة المرأة الرجل في الأمور العامة :

ركّز القرآن الكريم على مسألة استقلالية المرأة إلى جوار استقلالية الرجل في كثير من الأمور العامة ، مثال ذلك مسألة الهجرة والمبايعة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، و . . . .

ففي مسألة مبايعة رسول الله ﷺ ، يروي ابن سعد عن عبد الله بن عبدالرحمن بن أبي صعصعة قال : قالت أم عمارة : كانت الرجال تصفّق على يد رسول الله ﷺ ليلة بيعة العقبة والعباس بن عبد المطلب آخذٌ بيد رسول الله ، فلما بقيتُ أنا وأم منيع نادىٰ زوجي عرفةُ بن عمرو : يا رسول الله ، هاتان امرأتان حضرتا معنا تبايعانك .

فقال رسول الله ﷺ : « قد بايعتهما على مابايعتكم عليه ، إني لا أصافح النساء » قالت : فرجعنا إلىٰ رحالنا فلقينا رجلين من قومنا ، سليط بن عمرو وأبا داود المازني يريدان أن يحضرا البيعة ، فوجدا القوم قد بايعوا ، فلما كان بعدُ بايعا أسعد بن زرارة وكان رأس النقباء في السبعين ليلة العقبة[1] .

---

(١) الطبقات الكبرىٰ : ٨/ ١١ .

وساق الإمام ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالىٰ رواية البخاري ، والتي فيها قول النبي ﷺ : « تعالوا بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصونيّ في معروف ، فمن وفّىٰ منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلىٰ الله ، إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه »[1] .

وهكذا في مسألة تحمل المؤمن الشدائد والمحن ، فهي تشارك الرجل في ذلك ، وفي هذا دليل على استقلال شخصيتها :

ففي سورة النساء حديث مستفيض عن قواعد القتال في الإسلام ، كالحذر من الأعداء ، والتأهّب لذلك ، وحمل السلاح ، وإعداد الجيش المتدرب ، والنهوض للقتال جماعات جماعات .

أما اختلاف الأعذار للتخلّف عن القتال فهذا دأب المنافقين ، لذلك فلا بدّ من نصرة وإنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، والذين منعهم الكفار ـ أهل قريش ـ من الهجرة إلىٰ المدينة المنورة ، وفي هذا الدليل على تحمّل المحن والشدائد من قبل النساء إلىٰ جانب الرجال ، قال تعالىٰ :

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء : ٧٥] .

ثم يركز القرآن الكريم علىٰ مسألة تحمّل النساء مع الرجال الأذىٰ ،

---

(١) صحيح البخاري : ٢/ ١٣٢٤ ، رقمه (٣٦٧٩) .

سواء كان ذلك باللسان أو الفعل ، وفيه دلالة واضحة علىٰ استقلال شخصية المرأة تماماً ، قال تعالىٰ :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٥٨] .

لذلك فشتم المؤمن أو المؤمنة ، وضربه أو ضربها ، وقتله أو قتلها ، وطعن شرفه وعرضه وطعنها ، ونسبة شيء له وهو بريء منه وكذلك هي . . . . . ، كل ذلك عند الله يعتبر من الأمور المخالفة للشرع ويحاسب عليها الإنسان حساباً عسيراً . . .

ثم يضرب القرآن مثالاً واضحاً ، ليكون بمثابة الدليل الحيّ علىٰ مشاركة المرأة للرجل في كل شيء ، قال الله تعالىٰ :

﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [البروج : ٤ـ١٠] .

إن الله تعالى لعن أصحاب الأخدود المشتمل على النار ، وهم كفار من نصارىٰ نجران اليمن ، حيث طلبوا من المؤمنين أن يرجعوا عن عقيدتهم ، فأبى الموحدون ذلك ، فثبتوا أول الأمر ثباتاً لا تعلوها السحب التي في الهواء وما كان من أولئك الكفرة إلا أن شقوا في الأرض أخدوداً ، وأجّجوا النار فيه ، ثم قذفوا المؤمنين في تلكم النار ، فلعنهم الله لعناً لا مثيل له ، لكن ما هو سبب تحريقهم ؟

ليس هناك من ذنب اقترفوه ، ولا عيب فعلوه ، لكن القضية في ضوء القرآن الكريم :

﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾.

وهنا تأتي الحكاية وفيها التأكيد على أن من أوصل ، أو أراد إيصال المؤمنين من جماعة مؤمني ـ أهل اخدود ـ ، هؤلاء توعّدهم الله بالنار عذاب الحريق ، ولم يميز الله تعالىٰ بين النساء والرجال ، بل دلّ علىٰ أن لكل منهما استقلالية في طريق إثبات شخصيته وموقعه ، وهكذا صبرت النسوة إلى جانب الرجال في تلكم المحنة والتسويف .

. . . .ويركز القرآن أيضاً على مسألة استقلالية المرأة من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فمسألة الأمر والنهي لا تنحصر بالرجال فقط ، إنما أيضاً هي من وظيفة الرجال والنساء أجمعين ، قال الله تعالى .

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٧١] .

وقد تتطلب مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ترك الأوطان والهجرة إلى أماكن أخرى خوفاً من الله وحده ، ويستحب ذلك على الرجال والنساء ، كما قال الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ [الأحزاب : ٥٠] .

وتحدثنا كتب السيرة والتراجم عن النساء اللائي هاجرن إلى مدينة رسول الله ﷺ ، وما جرى معهن من المحن والشدائد ، لكن الله تعالىٰ أنزل قرآناً يبشّر المهاجرين ـ سواء كانوا رجالاً أو نساءً ـ بالأجر الكبير

من الله تعالىٰ خاصةً إذا حدث له مشكلة أو مرض أو موت!! قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : آية ٩٧-١٠٠] .

وقد تحضر المرأة مع الرجال في الأمور العامة ، مثل المباهلة ، حيث جاء وفد نجران من النصارى إلى رسول الله ﷺ ، وقدّم رسول الله حججه ، فلم يعترفوا بنزاهة مريم وعبودية المسيح لله تعالىٰ ، فقال رسول الله : فليأت كل منا بأهله وليدعوا الله عليهم إن كان كاذباً . ثم جاء الرسول بابنته الزهراء ، وابنيها الحسن والحسين وصهره علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم جميعاً ، فخاف الوفد ولم يُقدموا على المباهلة . وفي ذلك يقول الله تعالىٰ :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٩-٦١] .

وقد تشارك المرأة في الأمور العامة من خلال الإدلاء بشهادتها ، كما قال تعالىٰ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ

وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .

وبالتالي يندرج تحت هذه القضايا أمور كثيرة ، مثل : حضور المرأة الجمعة والعيدين وسائر أمور العبادات حيث لا يفرق الإسلام بينها وبين الذكر ، لأن المسألة أن الله تعالىٰ أراد للمرأة أن تكون مع الرجل ، تواسيه ، وتُشيع أمور الهدوء والطمأنينة في البيت ، وفي القرآن والسنة نماذج كثيرة عن ذلك ، ولعلّ الله أن يوفّق لشرح ذلك في فصول قادمة .

جـ ـ مشاركة المرأة الرجل فيما يتعلق بشؤون الأسرة :

امتنّ الله علىٰ عباده بمسألة الزواج بمنن ثلاث ، وجمع ذلك كله في آية واحدة ، وهي قول الله تعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم : ٢١] .

فالمنة الأولىٰ هي زوجة الرجل من جنسه ﴿من أنفسهم﴾ وإلا لو كانت من طبيعة أخرىٰ كالملائكة ، أو كانت من كوكب آخر كالمريخ ، فكيف تتلاءم معه ؟ !

والمنة الثانية : أن الله سبحانه جعل المكان الوحيد الذي يجعل الرجل يرتاح من عناء الحياة هو البيت الزوجي ﴿لتسكنوا إليها﴾ .

والثالثة : أنه جعل بينه وبينها المودة والرحمة ، فهو يرحم ضعفها ويساعدها ، وهي توده وتعامله بلطف واحترام .

وفي هذا دليل واضح على مشاركة المرأة الرجل في قضايا بيت الزوجية .

ثم يفصل القرآن الكريم أكثر ، ليعطي الرجل زيادة في المسؤولية وتحمّل الأعباء ، فهو بالإضافة إلى عمله خارج البيت لتأمين المال والأرزاق ، إضافة إلى هذه فهو المسؤول الإداري عن تسيير شؤون الأسرة ، قال الله تعالىٰ :

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ [النساء : ٣٤] .

لكن هل تعني القوامة هنا الظلم والاستبداد بالرأي و(الديكتاتورية) من قبل الرجل ؟!

أبداً ، فالمسألة قد رُسمت في القرآن الكريم ، بحيث هناك توازن بين حقوق الزوجة وواجباتها ، لذلك قال الله تعالىٰ :

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ ﴾ [البقرة : ٢٢٨] .

فللمرأة حقوق وعليها واجبات ، وللرجل حقوق وعليه واجبات ، لكن الله أعطىٰ الرجل درجة أكثر من درجة المرأة ، ولعلها من متطلبات رئاسة البيت وقيادته ، لكن وللأسف يستغل البعض هذا المنهج ليعتبر الدرجة تساوي المسافة بين دمشق وواشنطن!!

وهكذا نلمح في القرآن منهج إشراك المرأة ـ فيما يتعلق بأمور الأسرة ـ مع الرجل ، فلها الحق في إرضاع ولدها من مطلقها ، كما قال تعالىٰ :

﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى

﴿ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ﴾ [البقرة : ٢٣٣] .

ولها الحق في إبداء رأيها فيما يتعلق بفطام ولدها ، وبالتالي لا يجوز للرجل أن يستبدّ برأيه في أمثال هذه الأمور الأسرية ، قال الله تعالىٰ :

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة : ٢٣٣] .

ولها الحق في أخذ النصيب الذي رسمه القرآن من الميراث ، كما قال الله تعالىٰ :

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ﴾ [النساء : ١١] .

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۖ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء : ٧] .

. . . .لكن الإسلام وضع بعض الضوابط لمسألة مشاركة المرأة الرجل في الأمور العامة ، أهمها : غض البصر من كلا الطرفين ، قال تعالىٰ : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾

[النور : ٣٠-٣١] .

كذلك مسألة الالتزام الكامل باللباس الشرعي : الذي لا يصف ولا يشفّ ولا يُبدي الزينة ولا يحرك مشاعر الرجال ، قال تعالى : ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ﴾ إلى أن قال ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ﴾ [النور : ٣١] .

وكذلك مسألة الوقار في الحركة والجدّية في الحديث ، فلا تكون المشية متكسّرة ولا يكون الحديث فيه نوع من عدم الوقار ، لأن ذلك كله يؤدي إلىٰ مفاسد تعود عقباها الوخيمة علىٰ الرجال والنساء ، قال تعالى :

﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾

[الأحزاب : ٣٢] .

أجل!

فالقرآن يؤكد من خلال رسمه لمعالم شخصية المرأة على مسألة مشاركتها الرجل في أمور البيت والأمور العامة ، بل وفي أدق الأمور . . .

وضرب القرآن الكريم نماذج من مشاركة المرأة الرجل ، كالحديث عن بلقيس في مملكة سبأ والقصة في سورة النمل / ٤٢ـ٤٤/ ، وخدمة زوج الخليل إبراهيم لأضيافه وتنزل الملائكة بالبشارة ، وذلك في سورة هود : / ٦٩ـ٧٣/ ، وقصة بنات شعيب عليه السلام و ما حدث بينهما وبين نبي الله موسى عليه السلام ، والقصة في سورة القصص/ ٢٣ـ٢٥/ . . . .

* * *

الفصل الثاني

المنهج النبوي
في الحديث عن شخصية المرأة

في السنة الطاهرة نلمح اهتماماً واضحاً في تحديد شخصية المرأة ، وذلك من خلال عدة محاور ، أهمها :

حضّ رسول الله ﷺ على حُسن رعايتها :

فإذا كانت زوجةً ، فإن رسول الله أكّد على جميل رعايتها ، من ذلك ما رواه ابن ماجه أن النبيَّ ﷺ قال : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي »[1] .

ومن ذلك ما رواه البخاري ومسلم أن النبيَّ ﷺ قال : « . . . . واستوصوا بالنساء خيراً »[2] .

وإذا كانت بنتاً فكذلك يجب حسن رعايتها ، وقد روىٰ الإمام مسلم بالسند المتصل إلىٰ أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال

---

(١) رواه ابن ماجه (١٩٧٧) والحاكم (٤/ ١٧٣) .

(٢) رواه البخاري (٣٣٣١) ومسلم (١٤٦٨) .

رسول الله ﷺ : « من عال ـ ربّىٰ ـ جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو . وضمّ أصابعه »[1] .

وروىٰ البخاري عن عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها حدثته قالت :

جاءتني امرأة معها ابنتان تسألني فلم تجد عندي غير تمرة واحدة فأعطيتها ، فقسمتها بين ابنتيها ، ثم قامت ، فخرجت ، فدخل النبيُّ ﷺ فحدثته ، فقال : « من ابْتُلي من هذه البنات شيئاً فأحسن إليهن كن له ستراً من النار »[2] .

وإن كانت أختاً ، فكذلك يجب حسن رعايتها :

عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسولُ الله ﷺ : « مَنْ كان له ثلاثُ بناتٍ ، أو ثلاثُ أخوات ، أو بنتان ، أو أُختان ، فأحسن صُحبَتهنَّ ، واتّقى اللهَ فيهن ، فله الجنة »[3] .

أما إذا كانت أماً ، فهناك التوصيات الكثيرة من رسول الله ﷺ ، حتى أن الجنة تحت أقدام الأمهات ، وقد روىٰ البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلىٰ رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله : من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : « أمك » قال : ثم من ؟ قال : « أمك » ، قال : ثم من ؟ قال : « أمك » ، قال : ثم من ؟ قال : « أبوك »[4] .

حتى لو كانت أمَة ـ عبدة ـ فعليه أن يحسن رعايتها :

---

(١) رواه مسلم (٢٦٣١) .
(٢) رواه البخاري (١٤١٨) ومسلم (٢٦٢٩) .
(٣) رواه الترمذي (١٩١٦) وأبو داود (٥١٤٧) وابن حبان (٤٤٧) .
(٤) رواه البخاري (٥٩٧١) ومسلم (٢٥٤٨) .

رُوي عن أبي بردة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « أيما رجل كانت عنده وليدة[1] فعلّمها فأحسن تعليمها ، وأدبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران »[2] .

والنبيُّ ﷺ لم يكن يقول الكلام بشكل نظري ، وإنما كانت سيرته سيرة الفعَّال أكثر من سيرة القوّال ، لذلك نجد نماذج عملية تطبيقية لمسألة الحض علىٰ رعاية المرأة واحترامها وحسن تكريمها ، ومن ذلك :

روىٰ البخاري ومسلم عن أبي قتادة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ (كان يصلي وهو حامل أمامة بنت زينب بنت رسول الله ولأبي العاص بن ربيعة ، فإذا سجد وضعها ، وإذا قام حملها)[3] . هذا مع حفيدته .

وروىٰ البخاري ومسلم عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « فاطمة بضعة مني[4] وفي رواية أخرىٰ : « شجنة مني » وتمامها : « إنما فاطمة شُجنة مني ، يبسطني ما يبسطها ، ويقبضني ما يقبضها فمن أغضبها أغضبني »[5] ، هذا مع ابنته رضي الله عنها .

وتروي السيرة الطاهرة أنه صلوات الله عليه كان يقوم لابنته إذا دخلت ويقبّلها ، ويدخل عليها إذا عاد من غزوة أو سفر . . .

وروىٰ مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : زار النبيُّ ﷺ قبر

---

(١) وليدة : أمَة .
(٢) رواه الطبراني والخرائطي في مكارم الأخلاق ، كما في كنز العمال (٤٥٣٩١) .
(٣) رواه البخاري (٥١٦) ومسلم (٥٤٣/٤٢ و٤٣) .
(٤) بضعة مني : قطعة مني .
(٥) رواه الحاكم : ٣/ ٤٧٣٤ .

أمه ، فبكىٰ وأبكىٰ من حوله فقال : « استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي ، فأستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي ، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت »[1] .

حتى مع مرضعته حليمة السعدية ، فقد روىٰ أبو داود عن أبي الطفيل قال : رأيت النبيَّ ﷺ يقسم لحماً بالجعرانة ، إذ أقبلت امرأة حتىٰ دَنَتْ إلىٰ النبي ، فبسط لها رداءه ، فجلست عليه ، فقلت : من هي ؟ قالوا : هذه أمه التي أرضعته[2] .

بل وحتىٰ مع خادمة المسجد ، والتي كانت تنظفه وتكنسه ، روىٰ البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رجلاً أسود أو امرأة سوداء كان يقمُّ المسجد ـ وفي رواية البخاري : لا أراه إلا امرأة ـ فمات ، فسأل النبي ﷺ عنه ، فقالوا : مات ، قال : « أفلا كنتم آذنتموني به ؟ دلوني على قبره ، أو قال : قبرها » ، فأتىٰ قبرها وصلىٰ عليها[3] .

بل وحتىٰ مع جميع النساء ، وفي ذلك دروس وعبر لا تُعجب المتتطعين الذين لا يريدون للإسلام أن يكون دولة قوية ، قال رسول الله ﷺ :

« حبّب إليّ من الدنيا الطيب ، والنساء ، وجُعلت قرة عيني في الصلاة »[4] .

---

(١) رواه أحمد (٢/١٤١) ومسلم (١٠٨/٩٧٦) وأبو داود (٣٢٣٤) والنسائي (٤/ ٩٠) وابن ماجه (١٥٧٢) .

(٢) رواه أبو داود (٥١٤٤) .

(٣) رواه البخاري (٤٥٨) ومسلم (٩٥٦) .

(٤) رواه النسائي (٣٩٣٩) وأحمد (٣/١٢٨) وأبو يعلى (٣٤٨٢) والبيهقي في سننه (٧/٧٨) .

وفي رواية أبي داود أن رسول الله قال : « إنما النساء شقائق الرجال »[1] .

بعد كل هذه التوصيات النبوية في الأمور المتعلقة بالنساء ، نلتفت إلىٰ جانب آخر من احاديث رسول الله ﷺ لنرىٰ كيف أن النبيَّ ﷺ وضع المرأة إلىٰ جانب الرجل ، واعتبر شخصيتها شخصية مستقلة تماماً :

فلها الحق في أن تشارك في مسائل الدعوة إلىٰ الله ، سواء كان الأمر متعلقاً بالداعي أو المدعو ، روىٰ البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قام رسول الله ﷺ حين أنزل : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] .

قال : « يا معشر قريش : اشتروا أنفسكم ، لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبد مناف : لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب : لا أغني عنك من الله شيئاً ، ويا صفية عمة رسول الله : لا أغني عنك من الله شيئاً ، ويا فاطمة بنت محمد : سليني ما شئت من مالي ، لا أغني عنك من الله شيئاً »[2] .

ولها الحق أيضاً في أن تأخذ دور الداعية إلى الإيمان بالله ورسوله ، كما هو دور الرجل في ذلك .

ولها الحق في أمور تتعلق بالأسرة ، وهذا أمر واسع جداً ، من ذلك : أنها تعتبر في البيت الزوجي مسؤولية وراعية ، كما يعتبر الزوج مسؤولاً وراعياً . كما في الحديث النبوي الطويل الذي يرويه البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما وفيه : « . . . . والرجل راعٍ علىٰ

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) رواه البخاري (٤٧٧١) ومسلم (٢٠٤) .

أهله وهو مسؤول ، والمرأة راعية علىٰ أهل بيت زوجها وهي مسؤولة عنهم »[1] .

ولها الحق الكامل في اختيار شريك حياتها ، ولها الحقّ في أن ترفض أي رجل يتقدّم لخطبتها فلا تراه مناسباً لها!!

روىٰ البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« لا تنكح الأيّم ـ الثيّب ـ حتى تُستأمر ، ولا تنكح البكر حتى تستأذن »[2] .

لأن المسألة ليست سهلة وبسيطة ، إنما هي عمر قد يطول ، وخاصة عندما يأتي الأولاد ، فإذا لم يكن لها رأي في اختيار زوجها ، فكيف ستعيش معه ؟!

فبيت الزوجية لا يقوم إلا على أساس الحب والتعاون والمودة ، ولذلك بعد أن حدثت الهجرة إلى المدينة المنورة ، واختلط المهاجرون بالأنصار ، راحت نسوة المهاجرين يتطبّعن ببعض طباع نسوة الأنصار!!

روىٰ البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : والله إن كنا في الجاهلية ما نعدّ للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل ، وقسم لهن ما قسم ، قال : فبينا أنا في أمرٍ أتأمّره ـ أفكر فيه ـ إذ قالت امرأتي : لو صنعت كذا وكذا!!

قال : فقلت لها : مالك ولما هاهنا فيما تكلُّفُك في أمر أريده ؟ فقالت : عجباً لك يا بن الخطاب ، ما تريد أن تراجع أنت ، وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتىٰ يظل يومه غضبان[3] . .

---

(١) رواه البخاري (٥١٨٨) ومسلم (١٨٢٩) .

(٢) رواه البخاري (٥١٣٦) ومسلم (١٤٢١) .

(٣) رواه البخاري (٥١٩١) ومسلم (١٤٧٩/ ٣٠ و٣١ و٣٤ و٣٥) .

وتروي كتب الشمائل والسيرة كيف كان رسول الله ﷺ يعاون أزواجه في البيت ، حيث يخيط ثوبه ، ويخصف نعله ، ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم[1] .

حتى أنه صلوات الله عليه كان يعاون النساء في تربية الأولاد ، وفي تدبير شؤون البيت وفي الإنفاق وإلى ما هنالك .

لكن قد يُقال : إن الرجل يملك زمام المبادرة دائماً ، فبيده مسألة الطلاق ، بحيث إذا كره زوجته طلقها ، بينما هي المظلومة التي لا تستطيع فعل شيء بالمقابل إذا كرهت زوجها ووصلت الحالة بينهما إلىٰ طريق مسدود!!

الإسلام أعطىٰ الرجل صلاحية الطلاق ، ولكن ضمن شروط قاسية ، وكذلك أعطىٰ المرأة صلاحية حق مفارقة زوجها ، وهو ما يطلق عليه في الفقه الإسلامي (الخلع) والذي يعرفه ابن رشد رحمه الله فيقول :

لما جعل الطلاق بيد الرجل إذا فرك ـ كره ـ المرأة ، جعل الخلع بيد المرأة إذا فركت الرجل[2] وفي هذا دليل واضح على استقلالية شخصية المرأة كما هي شخصية الرجل أيضاً ، روىٰ البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جاءت امرأة ثابت بن قيس إلىٰ النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله ، ما أنقم علىٰ ثابت في دين ولا خلق ، إلا أنني أخاف الكفر[3] ، فقال رسول الله ﷺ : « فتردين عليه حديقته ؟ » فقالت :

---

(١) رواه أحمد (٤٩/٦) والبخاري (٦٧٦) و(٢٤٩١) وأبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ (٢٠) .

(٢) بداية المجتهد ونهاية المقتصد : ٣٧/٢ .

(٣) أي : أنها بسبب كراهيتها له وعدم الوفاق معه ، فإنها تخاف أن تقصّر في حقه ، =

نعم ، فردت عليه ، وأمره ففارقها »[1] .

كذلك ، فللمرأة الحق الكامل في الذهاب إلى المساجد ، وحضور الجمع والجماعات وشهود مجالس الذكر والعلم ، وممارسة الشعائر كلها ، وقد أوردتُ أمثلة كثيرة من هذا الأمر في كتابي (النساء شقائق الرجال) ، من ذلك على سبيل المثال لا الحصر : كانت النساء يحضرن صلاة الجنازة : روىٰ الإمام مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : « لما توفي سعد بن أبي وقاص أرسل أزواج النبي ﷺ أن يمروا بجنازته في المسجد فيصلون عليه ، ففعلوا ، فوُقف به علىٰ حُجرهن يصلين عليه »[2] .

وكنّ يحضرن مع رسول الله ﷺ مناسك الحج ، ففي صحيح مسلم عن أم الحصين رضي الله عنها قالت : « حججت مع رسول الله ﷺ حجة الوداع ، فرأيته حين رمىٰ جمرة العقبة وانصرف »[3] .

وروىٰ البخاري مسلم عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : « شكوت إلىٰ رسول الله ﷺ أني أشتكي ، قال : طوفي من وراء الناس وأنت راكبة ، فطفت ورسول الله يصلي إلىٰ جنب البيت يقرأ بالطور وكتاب مسطور »[4] .

وكنّ يحضرن صلاة الفريضة في المسجد ، روىٰ البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : « كن نساء المؤمنات يشهدون مع

= فتحمل وزر ذلك ، وهو ما يساوي : كفران العشير .

(١) رواه البخاري (٥٢٧٥) .

(٢) رواه أحمد (٦/ ٧٩) ومسلم (٩٧٣/ ١٠٠ و١٠١) وأبو داود (٣١٨٩ و٣١٩٠) والترمذي (١٠٣٣) والنسائي (٤/ ٦٨) .

(٣) رواه مسلم (١٢٩٨) .

(٤) رواه البخاري (٤٦٤) ومسلم (١٢٧٦) .

رسول الله ﷺ صلاة الفجر متلفعات بمروطهن ، ثم ينقلبن إلىٰ بيوتهن حتىٰ يقضين الصلاة »[1] .

وكنّ يعتكفن في رمضان وفي المسجد ، فقد روىٰ البخاري عن عائشة رضي الله عنها : « أن النبيَّ ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتىٰ توفاه الله ، ثم اعتكف أزواجه من بعده »[2] .

وكنّ يحضرن صلاة وخطبة العيد ، وقد روىٰ البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : « وكان يوم عيد يلعب فيه السودان بالدّرق ـ بالترس ـ والحراب ، فإما سألتُ النبيَّ ﷺ وإما قال : تشتهين تنظرين ؟ قلت : نعم ، فأقامني وراءه ، خدّي علىٰ خده وهو يقول : دونكم يا بني أرفدة ، حتىٰ إذا مللت قال : حسبك ؟ قلت : نعم ، قال : فاذهبي »[3] .

وروىٰ البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : « قام النبيُّ ﷺ يوم الفطر فصلىٰ فبدأ بالصلاة ثم خطب ، فلما فرغ نزل ، فأتىٰ النساء فذكّرهن وهو يتوكأ علىٰ يد بلال ، وبلال باسط ثوبه يلقي فيه النساء الصدقة »[4] .

وهكذا شاركت النساء بالتعلم والتعليم ورواية سنن رسول الله ﷺ للناس ، ولولاهن لضاع قسم كبير من سنن رسول الله ﷺ ، ويكفي أن ننظر في مسند السيدة عائشة رضي الله عنها ؛ لنرىٰ كم لها من الفضل في مسألة حفظ وضبط الأحاديث الشريفة .

---

(١) رواه البخاري (٥٨٧) ومسلم (٦٤٥/ ٢٣٢) .
(٢) رواه البخاري (٢٠٢٦) .
(٣) رواه البخاري (٩٥٠) ومسلم (٨٩٢) .
(٤) رواه البخاري (٩٦٤) .

وكذلك فلها الحق الكامل في المشاركة في جميع الأمور العامة ، كالأعراس ، والمناسبات والتعازي والاستقبالات والرعاية الصحية والنشاطات السياسية ، واختيار الخليفة أو الأمير أو الحاكم ، حتىٰ في الحروب لها الحق في مشاركة الرجال فيما يناسب طبيعة تكوينها الجسدي والفيزيولوجي : كالتمريض والإسعاف والتموين . . .

كل ذلك ضمن آداب وقوالب وضعها الإسلام ، من أجل ضبط العلاقة بين الرجال والنساء ، لكن ـ وللأسف ـ مع تقادم الزمان وُضعت أمور ما أنزل الله بها من سلطان حيث حرّموا خروج المرأة إلىٰ المسجد ، وحرّموا مخالطتها الرجال! وحرّموا مشورتها وأخذ رأيها حتىٰ لو كان الأمر يختص بها أو بأولادها!

وكل ذلك تحت غطاء الغيرة علىٰ العرض والدين ، ووالله ليس هؤلاء أكثر غيرة من سيدنا رسول الله ﷺ وصحابته الكرام .

إن المرأة في عهد سيدنا رسول الله كانت مستقلة الشخصية إلىٰ حدٍّ أننا إذا قرأنا بعض أخبارهن وفي زماننا المتقدم رأينا العجب العجاب!!

روىٰ الإمام الترمذي أن أم سليم قالت : « يا أنس! اذهب بهذا إلىٰ رسول الله ﷺ ، فقل : بعثت بهذا إليك أمي وهي تقرئك السلام وتقول : إن هذا لك منا قليل يا رسول الله . . . »[1] .

أجل : هي مستقلة الشخصية تهدي من تشاء باسمها ، لا باسم أبيها أو أخيها أو زوجها!!

وتلكم (عاتكة بنت زيد) زوجة عمر رضي الله عنه ، يقول لها :

---

(١) رواه الترمذي (٣٢١٨) .

لا تخرجي إلىٰ المسجد! فتحاوره وتناقشه وتحتج عليه بقول رسول الله ﷺ ـ كما في رواية البخاري ـ : « لاتمنعوا إماء الله مساجد الله »[1] ويسكت عمر ، حتىٰ إذا ما طعن عمر في صلاة الفجر في محراب رسول الله كانت عاتكة في المسجد!! » .

وتلكم ميمونة بنت الحارث تتصرف بكل استقلالية ، فتعتق جاريتها :

روىٰ البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما : « أن ميمونة بنت الحارث أخبرته أنها أعتقت وليدة ولم تستأذن النبيَّ ﷺ ، فلما كان يومها الذي يدور عليها فيه ، قالت : أشعرت يا رسول الله أني أعتقت وليدتي ؟ قال : أوفعلت ؟ قالت : نعم ، قال : « أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك »[2] .

أجل : هذه الاستقلالية في الشخصية ترسمها كتب السنن والسيرة ، وإلىٰ أبعد الحدود ، إلىٰ درجة أن البخاري يروي أن خنساء بنت خدام ـ وكانت ثيباً ـ زوَّجَها أبوها من شاب ، فاشتكت إلىٰ رسول الله كراهيتها له ، فرد نكاحها!![3] .

وكانت النساء يأتين رسول الله ويشتكين معاملة أزواجهن ، كما في رواية مسلم « أن هند بنت عتبة اشتكت شحّ زوجها أبي سفيان ، فقال لها الرسول ﷺ : خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف »[4] . أي دون علم زوجها!!

---

(١) رواه البخاري (٩٠٠) .
(٢) رواه البخاري (٢٥٩٢) .
(٣) رواه البخاري (٥١٣٨) .
(٤) رواه البخاري (٢٢١١) ومسلم (٧/١٧١٤ و٨) .

أجل!

المنهج النبوي الطاهر يرسم خطوطاً عريضة لشخصية المرأة المسلمة المستقلة ، فهي إنسانة لها كرامتها ، وهي إنسانة مسؤولة ، وهي إنسان لها الحق في اتخاذ القرارات ، وهي إنسانة راشدة تمارس حقوقها السياسية والاجتماعية و. . . .

وبهذا نرىٰ التكامل بين حديث القرآن الكريم عن شخصية المسلمة ، وبين المنهج النبوي في الحديث عن شخصيتها ، كيف لا ؟ والقرآن هو الذي يعلم الأجيال :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر : ٧] .

نسأل الله أن يجعلنا من الوقافين عند الحدود الشرعية ، وأن يبعدنا عن الغلو والإفراط و التفريط ، وأن يجعلنا من حملة الفكر الوسطي المعتدل إنه علىٰ ما يشاء قدير .

* * *